

التوحيد أعظم الحسنات والشرك أخطر السيئات

خالد بن ضحوي الظفيري

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلٌّ لَّهُ، وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهُدُ أَنَّ لَآللَّهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِلَهُ وَلَا تَمُوتُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

عَبَادَ اللَّهُ:

اعْلَمُوا أَنَّ أَعْظَمَ مَا أَمْرَكُمُ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لِهِ الدِّين﴾، وَأَعْظَمُ مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ الشُّرُكُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنْ تَجْعَلَ اللَّهَ نَدًا وَهُوَ خَلْقُكُ، فَالشُّرُكُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَعْظَمُ أَنْوَاعِ الظُّلْمِ: ﴿إِنَّ الشُّرُكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، وَمَنْ مَاتَ عَلَيْهِ غَيْرُ تَائِبٍ مِنْهُ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشَرِّكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَا وَمَوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾، وَعَنْ أَبْنَى مُسَعُودَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نَدًا دَخَلَ النَّارَ» [رواه البخاري]، وَلَمْسِلِمٌ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشَرِّكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهُ يُشَرِّكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ»، وَهُوَ الذَّنْبُ الَّذِي مَنْ لَقِيَ اللَّهَ بِهِ لَا يَغْفِرُ لَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشَرِّكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وَهُوَ أَعْظَمُ التَّنَقُّصِ لِرَبِّ الْبَرِّيَّةِ وَمَسَاوَاهُ غَيْرِهِ فِي الْأُلُوهِيَّةِ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدُلُونَ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

وَلَعْظَمُ خُطُورَةُ هَذَا الذَّنْبِ، وَقَبِحُ عَاقِبَتِهِ وَعَقُوبَتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ اتَّقَ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ جَمِيعًا عَلَى النَّبِيِّ عَنْهُ وَتَحْذِيرُ أَقْوَامِهِمْ مِنْهُ، قَالَ سَبَحَانَهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنَّ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فَهَذَا نُوحٌ وَهُودٌ وَصَالِحٌ -عَلَيْهِمُ السَّلَامُ- قَالُوا جَمِيعًا لِأَقْوَامِهِمْ: ﴿يَا قَوْمٍ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾، وَإِمامُ الْمُؤْمِنِينَ إِبْرَاهِيمُ التَّسْتَبِيلَةُ كَانَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ وَذُرِّيَّتِهِ مِنَ الشُّرُكِ فَقَدْ دَعَا رَبَّهُ بِقُولِهِ: ﴿وَاجْنِبْنِي وَبْنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ إِنَّنِي أَضْلَلْنِي كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾، وَعِيسَى التَّسْتَبِيلَةُ قَالَ لِرَبِّهِ مُتَبَرِّئًا مِنَ شُرُكِ قَوْمِهِ: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا

ما أَمْرَتِنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ》， وهذا نبِيٌّ يَقُولُ لِقَوْمِهِ: ﴿قُلْ تَعَاوَلُوا أَتْلُ مَا حَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، وَبَيْنَ ذَلِكِ دُعْوَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ، ﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شَيْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْحَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾، وَسَارَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْأَمْرِ بِهِ، وَمُحَارَبَةِ الشَّرِكَ وَالنَّهِيِّ عَنْهُ كُلُّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسُولَ وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ الْأَنْقِيَاءِ وَالْأَئِمَّةِ الْأُولَائِءِ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَيِّلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةِ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسَبِّحَ اللَّهَ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشَرِّكِينَ﴾، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ اتَّبَعَهُمْ وَاقْتَفَى أَثْرَهُمْ فَوَحْدَ اللَّهُ وَأَخْلَصَ الدِّينَ لِمَوْلَاهُ.

عَبَادَ اللَّهُ:

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الْمُسْتَحْقُ لِلْعِبَادَةِ فَمَنْ صَرَفَ أَيْ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِهَا الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ لَغَيْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا مَرْسُلًا أَوْ مَلَكًا مُقْرَبًا فَقَدْ وَقَعَ فِي الشَّرِكِ بِاللَّهِ، فَلَا تَنْتَوِجِهُ بِالدُّعَاءِ إِلَى إِلَهٍ وَحْدَهُ، وَلَا نَسْتَعِيْثُ وَلَا نَطْلُبُ الْمَدَدَ وَالْحَاجَاتَ وَدَفْعَ الشَّرِّ وَالْكُرُبَاتِ إِلَى مَنْ أَنْتَ بِهِ سُبْحَانَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَضَلَّ مِنْ يَدِنِي دُونَ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَحِيْبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وَلَا نَذْبَحُ وَنَنْذِرُ إِلَى اللَّهِ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ، فَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَعْنَ اللَّهِ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ» [رَوَاهُ مُسْلِمٌ]، وَلَا نَجْعَلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطًا نَدْعُوهُمْ وَنَسْأَلُهُمْ وَنَطْلُبُ مِنْهُمُ الشَّفَاعةَ كَمَا فَعَلَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى كُفَّارَهُمْ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ: ﴿أَلَا لَهُ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَائِهِ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيَقْرُبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَيْ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مِنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارًا﴾، فَدَعَاهُنَا وَصَلَّاهُنَا وَجَمِيعُ عِبَادَاتِنَا لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبِهَذَا أَمْرَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايِي وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ مَنْ كُلُّ ذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرُوهُ؛ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

الخطبة الثانية

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَاحِبِهِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ، وَأَشَهَدُ أَنَّ لَلَّهِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشَهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَأُوصِيكُمْ - عِبَادَ اللَّهِ - وَنَفْسِي بِتَقْوَى اللَّهِ؛ فَمَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَنَصَرَهُ وَكَفَاهُ.

عِبَادَ اللَّهِ:

لَقَدْ سَدَّ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ أَبْوَابِ الشَّرِّ وَالظُّرُقِ الْمُوَصلَةِ إِلَيْهِ حِمَايَةً لِجَنَابِ التَّوْحِيدِ وَحِرْصًا عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْمُشْرِكِينَ الْمَالِكِينَ، وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الشَّرِّ بِاللَّهِ الَّتِي جَاءَ النَّهْيُ عَنْهَا: الغُلوُّ فِي الصَّالِحِينَ، وَهُوَ السَّبَبُ الَّذِي أَوْقَعَ الْأُمَّمَ السَّابِقَةَ فِي الشَّرِّ كَبِيرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى، بَلْ مَا وَقَعَ الشَّرِّ كَبِيرٍ بِاللَّهِ تَعَالَى إِلَّا بِسَبَبِ الغُلوُّ فِي الصَّالِحِينَ وَإِعْطَائِهِمْ بَعْضَ صَفَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَدَعَوْهُمْ وَتَجَاهُوا إِلَيْهِمْ وَسَأَلُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا وَقَعَ فِي قَوْمٍ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالغُلوُّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلُكَ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلوُّ فِي الدِّينِ» [رواه النسائي وابن ماجة وصححه الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهمما]، وَنَهَا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَغْلُوَ فِيهِ فَكَيْفَ بَغِيرِهِ وَمَنْ هُوَ دُونَهِ؟ فَقَالَ: «لَا تُطْرُوْنِي كَمَا أَطْرَتَ النَّصَارَى ابْنَ مَرِيمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ» [رواه البخاري من حديث عمر رضي الله عنه]، بَلْ نَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ أَنْ يَغْلُوَ أَحَدٌ فِي قَبْرِهِ فَيُجَعَّلَ عِيدًا وَمَسْجِدًا كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ بِقُبُورِ أَنْبِيَائِهِمْ، فَعِنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرْضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: «لَعْنَ اللَّهِ يَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ». قَالَتْ: فَلَوْلَا ذَاكَ أَبْرَزَ قَبْرَهُ غَيْرُ أَنَّهُ خُشِيَ أَنْ يَتَخَذَ مَسْجِدًا. [متفقٌ عَلَيْهِ]، وَهَذَا بَيَانٌ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَظِيمِ افْتَنَانِ النَّاسِ بِقُبُورِ الصَّالِحِينَ فَسَدَّ هَذَا الْبَابَ حِمَايَةً لِلتَّوْحِيدِ، وَصَوَّنَا لَهُ، وَمِنْ ذَلِكَ نَهْيُهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقَابِرِ فَقَالَ: «وَإِنَّمَا كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَخَذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَخَذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ» [رواه مسلم]، وَنَهَا عَنِ الْبَيْانِ عَلَيْهَا وَرَفَعَهَا كَمَا جَاءَ عَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُحَصَّصَ الْقَبْرُ وَأَنْ يَقْعُدَ عَلَيْهِ وَأَنْ يُبَيَّنَ عَلَيْهِ» [رواه مسلم].

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللَّهِ طَرَائِقَ الشَّيَاطِينَ وَوَسَائِلَهُمْ لِصَرْفِكُمْ عَنِ التَّوْحِيدِ وَأَفْضَالِهِ، وَغَمْسُكُمْ فِي مَهَاوِي الشَّرِّ وَأَوْحَالِهِ، وَاجْتَهِدُوا فِي دُعَاءِ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُثْبِتَ قُلُوبَكُمْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَيُمْيِتُكُمْ عَلَيْهِ.